ليست النائحة ... كالثكلى(*)

ورقات من تاريخنا، أتمنى لو تقرأ بعناية وتدبر، تلك التي تقدم ثمرات الرحلة عبر الأيام، وتقويم الخطأ والصواب، دون محاورة أو مداورة، ودون عدوان على الحدود والقيم، وتلاحق حوادث التاريخ من منظور الأمة، لا من خلال النزعات الفردية: لتتخذ منها العبر النافعة، والدروس التي تغني طريق الأمة في مواجهة الزعازع والأعاصير!

فلو قرأنا هذه الورقات - أو الفصول - قراءة جديدة واعية متدبرة، وبمرئيات لا يشوبها ظلٌّ جائر من أحكام سبقت القراءة والتدبر.. لكان لنا شأن آخر في الإفادة من الماضي بحلوه ومره، ولكان لنا من ذلك ضياء نتبين من خلاله جوانب من الحاضر، الأمر الذي له ما له من آثار على المستقبل.

أقول هذا الكلام، وأمامي كلمات صيغ منها المثل العربي «ليست النائحة كالثكلى». وهذا المثل الذي يراودني ظله ولا تكاد تفارقني دلالته، ويزداد إحساسي بمعناه ويزداد.. كلما سمعت أو قرأت بياناً يصدره الغرباء عنا بشأن الأراضي المغتصبة والاحتلال، ويبرئون ذمتهم أمام مرآة المداجاة لحاجة في نفس يعقوب، فيقولون كلاماً يفيدهم ولا يغني من الحق شيئاً، فالحال تسوء يوماً بعد يوم، لأن خبز اليهود اليومي - كما يقال - أن يضربوا جنوب لبنان ويلاحقوا المخيمات والقرى والمدن بمن فيها من أطفال ونساء ومسنين، وقد دأبوا على ذلك بحقد يروي غل صدورهم تحت سمع أدعياء

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد السابع، السنة العشرون، رمضان ١٣٩٩هـ، آب ١٩٧٩م.

حقوق الإنسان وبصرهم . . وقد وصل ذلك إلى الحد الذي أدمن معه الناس على سماع تلك الأنباء، فلم يعودوا يفرقون بين النبأ المزعج المرهق، وبين النبأ المفرح، واستوى الماء والخشبة .

واليهود أيضاً متعتهم اليومية أن يزوروا مصر، ومع كل خطوة شعور جديد بالانتصار المتعالي، والشموخ الذي يزدري الآخرين، ولكن المتعة الأكبر : أن يصرخوا دائماً ـ وهم ضيوف البلد الشقيق في ظل الأهرامات وعلى ضفاف النيل، وتحت سماء قاهرة المعز والأزهر والجامعات ـ: أنهم عند الذي أرادوا من أول يوم . . وهل من مزيد؟ الطائرات تقصف بيوتنا وأهلينا هنا وهناك، والتصريحات زادٌ يومي لا يمله المفاوضون على الحكم الذاتي!! بل يزيدهم كرماً حاتمياً وتنازلات يوماً بعد يوم!!!

هذا الحكم الذاتي كما يراه اليهود، يتعلق بالبشر لا بالأرض، ولابد أن تعود الأمور بعد خمس سنين أشد وأقسى، حيث تأخذ القبضة الحديدية تكييفها القانوني كما يشاء الصهاينة ويشاء صاحب الكرم الحاتمي والرائد الحضاري الجديد!!

والمستوطنات باقية وكل يوم هي في ازدياد، وكل واحدة منها قلعة حصينة أثيمة بين ظهراني أهلينا في الضفة الغربية، حيث يسد اليهود عليهم حتى منافذ الهواء لو استطاعوا .

والقدس الطهور . . وما أدراك ما القدس الطهور؟ القدس التي تنادي عمر . ولا عمر، وتستنجد من ظلم الغاصب وتهاون ذوي القربى،

نورالدين وصلاح الدين، ولا نورالدين ولا صلاح الدين.. القدس هذه كل تصريحات اليهود حولها لا تخرج عن ادعاء أنها عاصمتهم التي توحدت إلى الأبد. وهي حقهم الطبيعي؛ لأنها من أرضهم التي وهبتهم إياها التوراة والتاريخ.. ويا قطع الله تلك الألسنة الفاجرة، ومعها كل الأعناق التي تنتفخ بالباطل، ومعها أيضاً كل الأنوف التي ورمت من كلمة الحق يقال، فراحت تعيث في الأرض فساداً، وتنزل بأهل الحق أعتى الضربات، وتذيقهم الويل والثبور.

أما عن إقامة دولة لأصحاب الحق الشرعيين: فهذا ما تعارضه إسرائيل - طبعاً - كل المعارضة؛ لأنه يتنافى مع الحدود الآمنة كما تراها، فقد انتقلت من الوطن القومي، إلى الدولة القومية، إلى دولة يجب على العالم أن يضمن لها حدوداً آمنة على حساب آهل الأرض وجيرانها، وإذا وصل اليهود إلى ما يزعمون أنه الحق: فعلى الدنيا العفاء.

يرافق هذا كله: ما أسموه تطبيع العلاقات المصرية الإسرائيلية - أستغفر الله - لعلها الإسرائيلية المصرية، وكان قد صرح وزير الدولة للشؤون الخارجية المصري من قريب: ألاّ تطبيع للعلاقات إلا بعد ثمانية شهور، ولكن رئيسه وافق في اليوم التالي على التطبيع، وفتح الحدود بالرغم من ذلك، وشر من هذا: أنه تم البدء في إعداد لجان التبادل الثقافي والحضاري بين البلدين، والأشد والأنكى من هذا كله: أنه تقرر أن يعاد النظر في جميع مناهج التعليم المصرية لتتواءم مع طبيعة الصلح. ولم يكن موضع الغرابة

عندنا الإسراع في فتح المجال الجوي بين كل من الطرفين ـ كي يستمتع توفيق الحكيم ومن كان على شاكلته بألوان الجمال الفني في تل أبيب ـ والزيارات شبه الأسبوعية لكبار المسؤولين، والتي كان منها ما طالعتنا به الصحف يوم الخامس من حزيران أن دايان وزوجته كانا يضحكان تحت ظلال الأهرام!!

وفي مواجهة ذلك كله بما له من دلائل ومؤشرات، وانعكاسات على مسيرة الأمة فيما يجب عليها من جهاد اليهود، يظل المثل العربي يلاحق «ليس النائحة كالثكلى». إن الأمة المصابة بأرضها وبنيها، والمنكوبة بتهاونها وسوء تقديرها للأمور، والمبتلاة بعدو أكل الحقد قلبه وأعمى بصيرته وحوَّله إلى مخلوق من نوع آخر. . يفترض ألاّ تكتفي بالوقوف عند المرحلة الوصفية للمشكلة وإنزال الشتائم المقزعة بالأعداء وأذنابهم، ولكن تنتقل نقلة جادة تكون أقوى من المعوقات والمثبطات، لأنها هي التي تحس المصاب الأليم كما هو، وتشعر بالعلقم الذي تتجرعه من هول الكارثة صباح مساء، وهي هي صاحبة الحق أولاً وآخراً، والمسؤولة عن قطع الأيدي التي تلصص أصحابها لسرقة هذا الحق والعدوان على أصحابه، وإذا لم تكن هي على هذا المستوى فمن يكون؟ على أن صدق الانتماء يفرض عليها أن لا تحول عن الطريق التي كان بها أسلافها خير أمة أخرجت للناس، وألا تسمي الأشياء بغير مسمياتها، فتستبدل التدحرج إلى القاع بالصعود إلى القمة الذي لم يبخل الأجداد بدفع ثمنه؛ جهاداً بالأموال والأنفس، كما هي توجيهات الكتاب الكريم وسيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه وكل أولئك البررة الميامين.

أجل . . ولن يستقيم في ميزان العقل : أن تكون النائحة كالثكلى ، المرأة المأجورة ـ في الجاهلية ـ لتنوح على قدر الأجر الذي تتناوله بلا إحساس من أهل الفقيد ، ليست كتلك الأم الجريحة التي كان الميت فلذة كبدها ، وذوب قلبها ، وحشاشة نفسها ، فإذا لم نرحم أنفسنا بأن تجرد الأمة كل الإمكانات للمواجهة ، وتوحد الصفوف لخوض المعركة ، كيما تثبت وجودها بأنها صاحبة الحق . فمن ذا الذي يرحمها من هؤلاء البشر العتاة الذين يعبدون مصالحهم في مصانعهم ومزارعهم وقنابلهم ، وقل مثل ذلك في كل من لا تربطه بالأمة وشيجة أو صالح عمل .

ولقد ننسى أبسط المعادلات التي يفرضها صراع الحياة في المعترك الحضاري على الأقل ، حين نعطي العدو مقاتلنا ، وننام على حسك الفرقة وإهدار الطاقات التي تتسم بصدق الانتماء ، ونستيقظ على تثاؤب اللامبالاة ، ثم نسترحم الجزار أو شريك الجزار أن يصب الرحمة على رؤوسنا صباً . أليس هذا هو العجب الذي ما بعده عجب ؟ !

والذي يقتضيه البر ، وتفرضه أمانة الكلمة ، ومسؤولية أبعادها في حياة الأمة ، أن نستذكر بكثير من العمق والموضوعية ، أن الله تعالى شاء لهذه الأمة أن تصاغ وتتعلم من طريقين :

أولاهما ـ طريق نظرية تقوم على تلقي المعرفة من طرائقها تلقيناً وتحملاً وتعلماً من دنيا القراءة والكتابة وكل الأساليب التي هي من ذلك بسبيل .

أما الطريق الثانية ـ طريق المعاناة والممارسة، طريق الحركة الدائبة على ساحة الحياة، صواب يداوم عليه، وخطأ يجتنب الوقوع فيه مرة أخرى، صياغة عملية لمنهاج الحياة من خلال الإنسان والوقائع على مقاييس الدعوة وفي ظل قيمها، والإفادة من تجارب الآخرين. . حتى كان من وراء ذلك بناء التاريخ، وإحكام صياغة المجتمع على النهج الذي دعت إليه رسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وهكذا كان يتنزل القرآن، يرافقه البيان النبوي، والحركة الدائمة، وخطوات البناء لا يعوقها شروق ولا غروب، والكل ـ مع تلقي المعرفة ـ يتحركون عاملين بما يعلمون، عازمين على صياغة تلك المعرفة واقعاً يروح ويغدو، وكأنهم في سباق مع الزمن.

ثلاثة وعشرون عاماً تنقضي من عمر الزمن، والوحي لا يني يتنزل بالخير والهدى، والعمل لا ينقطع. وجهاد النفس، وجهاد الأعداء من يهود ومشركين ومنافقين وغيرهم لا يتوقف ضمن حدود مرسومة ومناهج كلها حق وعدل وإحسان، وإخراج المبادئ والأفكار إلى حيز التنفيذ: منهاج حياة يومي للفرد والجماعة والأمة، لا يعتريه ضياع أو انفصام.

وانقضت سنوات الوحي واكتمل معها البناء. . ولم يعن هذا أن تتوقف الخلايا عن الحركة لأن قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ كان إيذاناً باستمرارية الواجب، وتحميل العهدة في نشر رسالة الإسلام في العالمين، والجهاد ماض إلى يوم القيامة، وما أكثر شعب الجهاد وطرائقه لمن عزم أن لا يكون من القاعدين.

واليوم: ما أكثر التجارب والوقائع التي تغني، سواء منها ما كان لنا أو ما كان علينا، والمفروض أن يوظف ذلك كله على طريق التحرير لأرضنا ولأنفسنا، ولا يعوزنا المنطق حين نقرر أن ما وقع لأمتنا من أحداث بعد الربع الأول من هذا القرن على الأقل كفيل بأن يحول التيار، وأن يعود بنا إلى الصحوة الكبرى.

كل هذا إذا تحولنا عن مقعد المشاهد العادي لمسرحية يصفق لمشهد أو مشاهد منها معجباً، أو يزورُّ مقطباً حاجبيه؟ فدور الأمة ليس دور النظارة المتفرجين، ولكنه دورالانفعال والفاعلية، والتأثر والتأثير، وإن شئت فقل: دور الاعتبار الذي يوظف الواقعة أو الحدث بمنهجية وموضوعية، وشجاعة ذاتية على طريق التحويل إلى الأفضل، في ظل انتماء صحيح وولاء صادق لخصائص الأمة ومقومات وجودها. فإذا رأيت انتفاعاً بالمصيبة يحمل على تلافي الخطأ والتهاون، وإحكام الربط بين الأمة وبين أسباب التمكين: فاعلم أن الخير هناك، وإذا رأيت آذاناً صماً، وأعيناً عمياً، وتمادياً فيما لا ينبغي، والحال هي الحال: فأعلم أن النار تريد أن تأخذ ما بقي كما أخذت ما سبق، والعياذ بالله.

ولئن كانت آيات الله في الآفاق تملأ على الإنسان حياته ليزداد يقيناً بوجود الله، فإن آياته القائمة على سنن كونية في أسباب الضعف والقوة، وعوامل التقدم والانهيار تملأ على المسلم أيضاً حياته ووجوده، فللنصر أسبابه وعوامله، وللخزي مداخله والطرائق المؤدية إليه، ومن سنن الله

نصره لأهل الحق إن هم نصروه وأيدوا شريعته، أجل.. تلك سنة ماضية ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

والمفروض أن يكون ذلك كله حين تستبدل الأمة الوعي بالغفلة، ومعاداتها للإسلام تصوراً وعملاً، بجفوته التي جعلت كثيراً من الناس يهابونه فيعرضون ويدبرون.

أجل، وحين تفعل الأمة ذلك، يكون صنيعها إيذاناً باختيار نمط جديد من الحياة يتسم بحسن التبصر والإقدام، وتحكمه عزيمة الرشد والثبات في الأمر، وإنها لأمنية غالية لا تبرح قلوب الأوفياء لهذه الأمة، الذين تقض مضاجعهم متاعبها، ويرهقهم أن ينالها من الأذى ما ينالها، وبخاصة عندما يكون ذلك على يد أولئك الذين طبع الله على قلوبهم، ووسمهم بميسم الضلال والإضلال.

والله وحده العليم بما تكنه السرائر، إليه يرجع الأمر كله، وبيده الأمر كله، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أولئك الذين يُغبطون (*)

كلما استلهم المسلم المعاصر واقع الأمة كما هو في أبعاده التي تقربه أو تباعده عن الإسلام: ازداد يقينه - حين يكون عميق الإدراك - بسداد ما اتجهت إليه المرحلة الأولى من مراحل الوجود الإسلامي على أرض الجزيرة حين عنيت أشد العناية بتحرير النفوس من الوثنية وما يدور في فلكها، وغرس الكلمة الطيبة كلمة التوحيد في أعماق تلك النفوس، ثم ضبط القيم، وتحديد طريقة التفكير في ضوء ذلك. كل هذا كيما يكون الإنسان الذي هو محور الحركة والعمل، وإخراج الأفكار إلى حيز الوجود الحقيقي، كفاء الإنجاز الكبير الذي هو توجيه كل طاقة وجهتها، ووضع كل عنصر من عناصر الحياة موضعه، في تكامل وتناسق، بعيداً عن أي لون من ألوان التشتت والضياع.

فالدعوة الإسلامية أخذت الإنسان من ساحة الوثنية إلى ساحة التوحيد، وفي الوقت نفسه: لم تتركه دون ضوابط وحوافز، ومنهجية في التفكير، وبعبارة أوضح: هي لم تنقل رقماً من جدول إلى جدول، وإنما حولت مجرى حياة هذا المخلوق الذي أهله الله للخلافة في الأرض، من طاقة معطلة، تتقاذفها الأهواء، وعبث الخرافة والمتسلطين: إلى طاقة فاعلة واعية، عرف الإنسان من خلالها موقع قدميه، والغاية التي يريد، وأنه لم

(*) مجلة حضارة الإسلام: العددان الثامن والتاسع، السنة العشرون، شوال وذو القعدة ١٣٩٩هـ، أيلول وتشرين الأول ١٩٧٩م.

يخلق عبثاً، وعرف كذلك ضوابط تعامله مع الناس والقيم والكون. لذا كان أي عدول عن هذا الصراط السوي، نزولاً إلى هاوية الضياع والارتكاس.

إنه جانب هام من جوانب بناء شخصية الإنسان، كيف يفكر؟ ما هو الهدف الذي يرمي إليه؟ ما هي الغاية التي يوظف فاعليته في طريقها؟ ثم ما هي القيم التي على أساسها يكون القرب أو البعد من الآخرين؟ وبعد ذلك: أين هو المصباح الذي يتسنى له أن يحمله بكلتا يديه، فيضيء له دياجير الظلم على دروب الحياة، كي يتبين الحق من الباطل، ويكون قادراً على دفع عجلة الحياة بشكل لا يجعلها تلتهم الأحياء، بل تصحبهم إلى حيث تكون الطاقات المبذولة، والوقت الذي هو ظرف العمل والحركة، في خدمة الوجود العملي للعقيدة في أحد وجهيها حين نفهم الإيمان تصديقاً بالقلب وعملاً صالحاً هو انعكاس هذا التصديق.. حين ينمو ذلك الوجود من خلال الوقت المنقضي دون توقف، والجهد المبذول دون سآمة، وحين تتعاظم كل القوى التي ترتفع عليها قواعد الحق، وتستوي على سوقها ـ من خلال ذلك ـ البنية الحضارية.

وتبرز أهمية ذلك أكثر وأكثر، يوم يكون إحساسنا بواقع البعثرة والتآكل الذي نعانيه صحيحاً، يجعل ألوان الهدم التي أصابت الأمة في هذا القرن، وجعلت المسلم في كثير من بقاع الأرض مغلوباً على أمره، يُحكم بالتعسف والهوى.. منطلقاً إلى لم الشتات، وإغناء المخاض الذي يسود حاضر

العالم الإسلامي اليوم، وتحرير الأسس التي يعتزم الرواد أن يستأنف عليها البناء، مما يوجب - بالضرورة - تصنيف قُدر الأمة وطاقاتها البشرية والمادية، وكيف توجه بعناية، وتوضع من خلال الدراسة والتقصي في ميادين العمل المثمر، ليكون الناتج في كفة الرجحان التي تضمن قوة متجددة تستطيع أن ترتقي بالعاملين إلى حيث يجب أن يكونوا.

والإحساس بالواقع الذي نشير إليه، لابد أن يصحبه تقويم ما أصاب الأمة من البله أو التباله - على يد بعض أبنائها - في تحديد موقعها من الآخرين. وموقع الآخرين منها، حين ضربت صفحاً عن واحد من مرتكزات التعامل مع فئام من الناس لا يكفون عن أذاها في الحاضر، كما لم يكفوا في الماضي، وجنت من وراء ذلك الصاب والعلقم، ذلك المرتكز هو قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾. هذا المرتكز الذي قبح الله عمل من يخالفونه - لمرض في قلوبهم - بتعللات فاسدة باردة، هي خشية أن يصيبهم أذى. مما يحملهم على المساومة والعياذ بالله ﴿**فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ**﴾.

وهذا الذي نقول: لا يمكن أن يضطلع به على ساحة التصور والشعور، وفي ميادين العمل والبذل والجهاد، إلا أولئك الصفوة الذين تُعدُّهم الأمة

على نهج يصلهم بما كان عليه أولئك الذين تقدموا الركب في صناعة تاريخ الأمة، وقال الله تعالى فيهم: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾. وذلكم أثر من آثار بناء الإنسان، على النهج الرباني كما أسلفنا من قريب.

هذا. علماً بأن أعين الآخرين مفتحة، واليدان: يد على الراصد ترصد كل حركة من حركات الأمة في كل قطر من أقطارها وتزنها بميزان مصالحهم القريبة والبعيدة كما تطالعنا أنباء كل صباح، وما يخفى أعظم مما يظهر بكثير.. وأخرى على الزناد تطلق النار نار الموت بواسطة أو بغير واسطة، على كل من يمكن أن يقولوا في وجه الخسف يسامونه: «لا»؛ ذلك أن إرادة الأقوياء ـ على زعمهم ـ هي الإرادة، أجل: إنها إرادتهم وكفى، فإذا أرادوا كان على العالم أن يريد، وبخاصة أبناء الإسلام الذين يأخذون حجماً كبيراً فيما يسمونه دول العالم الثالث، ومن خلال ذلك يصبح الوعي الذي يريده الإسلام لأبنائه جريمة.. أي جريمة!!

كما أن التاريخ يجب أن يكون واحداً، إنه تاريخهم وحسب، فإذا أشرق أشرقت الدنيا، وإذا أظلم أظلم الوجود!!

من أجل ذلك يجب أن يكون الوجود وجودهم، ومهما تسلط على الآخرين من ألوان العنت والإرهاق بل حتى الإفناء، فليس ذلك شيئاً يذكر، ما دام الذين يتلاعبون بمقدرات الشعوب على حال من الوجود الذي يرتضونه في ميادين السياسة والاقتصاد والفكر.

أي شيء في أن يموت الألوف أو عشرات الألوف؟! أية مخالفة في أن تغتصب الأرض ويطرد أهلها، ويحكموا بسياط التصفية الجسدية والتمزق النفسي والضياع القاتل صباح مساء.. مادامت شعارات الحرية الكاذبة وتماثيلها لم تصب بسوء، ومادام العتل الكافر في الغرب والشرق، يتمطى على أريكة الحكم المتجبر، ويرطن بلحن العبث العابث هنا وهناك؟

ولمَ كل ذلك؟ نقول لمن يعجب: إن الشعوب في نظرهم - ونحن نعني ما نقول - لم تبلغ سن الرشد، ولن تبلغ.. العالم الإسلامي كله - وليتنا نعيها كما ينبغي - لا وزن له في نظر من يوالون إسرائيل، وكل أعداء أمتنا في العالم، إلا بمقدار ما يحقق من أغراضهم السياسية والاقتصادية ضمن المؤشرات الدولية المعلنة وغير المعلنة!! لذا كان لزاماً أن تنصب خيرات هذا العالم في نهر حياتهم كيفما يشاؤون، وبالقدر الذي يطلبون، وأي التفاتة إلى غير ذلك، معناها الخروج على إرادة من لا يصح الخروج على إرادتهم، لأن ذلك يعني توقف عجلة الحياة. ويا للنكبة!

أما اليهود ومن على شاكلتهم: فهم أناس متحضرون، جديرون بالحياة، لا يصدر عنهم إلا ما يليق بصحيح نسبتهم إلى القرن العشرين!! وأكثر من هذا، إنهم في صراعهم مع هذه الأمة يمثلون قمة الصراع بين حضارتين، إحداهما حضارة هذه الأمة المسلمة بما لها من وجود عبر التاريخ، يهابون أن تعود.. والأخرى حضارة الغرب.

وكان من نتيجة ما نقول بشأن هؤلاء وأولئك من الأناسي، أنهم يفعلون كل الأفاعيل عدواناً على الإنسان والقيم، وتجاوزاً لأبسط أخلاقيات

الشعوب، ويدَّعون ذلك حضارة وتقدماً، وإذا صدر عن أمتنا أي شيء؛ محاولة لاسترداد الحق أو الحقوق المغتصبة من قبل الأعداء، أو دفاعاً في وجه الظلم والطغيان، كان ذلك همجية على طريق أدعياء التحضير وعدواناً على حقوق الإنسان. نقول هذا والناس يكادون ينسون واحدة من مظاهر الرقي عند اليهود وهي حريق الأقصى قبل عشر سنوات!! أجل يكادون ينسونها في خضم ما يصنع هؤلاء اليهود كل لحظة على الصعيدين العسكري والسياسي.. وفي بحران ما تقوم به بعض الدول والهيئات الدولية من تأويلات كلها جناية على الحق وأهله، حيث تغط المبادئ والشعارات التي تملأ الملفات والكتب والنشرات في نوم عميق جدٍّ عميق!!

وعلى هذه الدروب الشائكة تطالعنا الضجة الكبرى من قبل الدول التي تقيم من نفسها وصية علي العالم، حول إمكانية امتلاك باكستان القنبلة الذرية، والعمل على الحيلولة دونها ودون أن تنتج هذه القنبلة، حتى بالتهديد والوعيد السافرين. الأمر الذي لم يحصل هو ولا قريب منه لغيرها كما هو معلوم.. ولكن أليس من الغريب أن نعجب لهذا، مع ما بين عبادة البقر والنار والشجر والحجر، وبين عبادة الله الواحد من فروق؟!!

ومن قريب حملت الأنباء أن وزارة الخارجية الباكستانية استدعت السفير الأمريكي في إسلام أباد، وأبلغته قلق حكومتها بشأن ما ذكر من أن الولايات المتحدة ستقوم بعرقلة برنامج باكستان النووي السلمي، وكان قد نشر أن حكومة السفير تزمع القيام بعمليات تخريب للحيلولة دون أن تنتج

باكستان قنبلة ذرية. كما حملت الأنباء تصريحاً لوزير الدفاع الباكستاني أن باكستان لن تذعن أمام أية ضغوط أجنبية فيما يتعلق ببرنامجها النووي.. ووصفت معارضة واشنطن بأنها من قبيل «التفرقة في المعاملة بين الدول».

وفتش في هذه الواحدة من الخبائث أيضاً عن دور اليهود في تعزيز الضجة والتهويل ضد باكستان.. ولكن لم لا؟ الإسلام هو العدو الأول لليهود وأعوانهم، والوثنية وسدنتها.. وكل الذين يباركون جرائم يهود واغتصابهم، وما يرتكبون صباح مساء من مآثم.. يخشون من صلة باكستان بالدول ذات العلاقة بمشكلة فلسطين؛ لأنهم يعلمون موقع الدولة الإسلامية من هذه المشكلة. فالحقيقة أن في عنق كل مسلم على وجه البسيطة أمانة الجهاد بما يملك من وسائل الجهاد، حتى تتحرر أرض الإسراء وما حولها من رجس الصهاينة مخلب اليهودية الذي يسقى بالرجس في كل آن.. وما أكثر ميادين الجهاد إذا وجد المنقادون لأمر الله ورسوله بالجهاد!

وفي عود على بدء: إن الذي تنتظره الأمة: جيلٌ يرتفع إلى مستوى المواجهة حيث التحديات الشرسة المجنحة من هنا وهناك، وهذا الجيل لابد أن يكون من أول مقوماته وخصائصه، إقبال على الجهاد في سبيل الله، حيث اليد التي تحمل السلاح بحرقة وشوق إلى الجنة، ومن وراء اليد عقل مستنير وقلب مشرق بالإيمان والاخلاص، وعبثاً نحاول أن نواجه التحديات بلا إنسان - على صعيد عالمنا الكبير - يحس بحريته وكرامته، ويهرول إلى المعركة بحافز الإيمان، مبتسماً للموت ابتسامة خُبيب وقتيبة والمثنى، يضيء

جبينه شعاع من قول الله الغالب على أمره ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

وقول إمام المجاهدين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فيما صح عنه: [**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة، خير من الدنيا وما عليها**]. [**ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار**]. [**ما من مكلوم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة، وكلمه يدمى، اللون لون الدم، والريح ريح المسك**].

وهنيئاً لأحباء الله المنقادين لأمره وأمر رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ جهادهم في كل ميدان، وصبرهم على لأواء الطريق، ويا نعم ما يلقون في الجنة دار الكرامة من الرضى والفوز بلقائه سبحانه، في منازل الشهداء والمكلومين في سبيل الله!

وأحباء الله هؤلاء الذين يستبشرون ببيعهم الذي بايعوا به، إذ اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.. إذا لم يُغبَطوا على جزيل العطاء وواسع الفضل، فمن هم أولئك الذين يُغبَطون؟! ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾. ولله الأمر من قبل ومن بعد، والحمد لله رب العالمين.

مواجهة الواقع

السيرة.. ولغة العصر(*)

بين الأمة وبين أن تبلغ ما تريد، مسافة تطول أو تقصر، حسب إفادتها من الماضي وتوظيفها تلك العبر على طريق التغيير، وبمقدار التزامها في الحاضر بعوامل القوة بمختلف أبعادها على صعيد الفكر والعمل كما أراد الله.

ونحن أمة أكرمها الله برصيد من الفكر لا نظير له عند أمم الأرض، وبتاريخ حافل بمآثر الحق ونصرة قضايا الإنسان، وجعل منها أمة وسطاً ترتقي إلى مستوى الشهادة على الناس سابقهم ولاحقهم، ومكن لها برسالة الخير والهدى: أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

وإذا كان الدهر قد قلب لها ظهر المجن ردحاً من الزمن نتيجة توليها وإعراضها أولاً، وتأمر الأعداء على اختلاف الألوان والعناوين ثانياً.. فإن ذلك لا يعني أن تستلم لرقدة الموت، ولكن يعني أن تثوب إلى ما به كانت خير أمة أخرجت للناس، فتستعلي بالإيمان والعزيمة على أشواك الواقع، كي تكون أقدر على تجاوزه إلى ما هو الأفضل والأكرم، وأن تحرص على أن تكون المسافة بين هذا الواقع وبين بلوغ ما تريد.. أقصر مسافة متصورة في حياة الأمم والشعوب.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثاني، السنة الحادية والعشرون، ربيع الآخر ١٤٠٠هـ، آذار ١٩٨٠م.

ومما ينبغي أن يكون في الحسبان: أن رصيد القرن الرابع عشر للهجرة في حياة أمتنا، ما له وما عليه، قيمة على صعيد التحرك الجديد، لابد أن تأخذ أبعادها وحجمها الطبيعي، كي تصحب العاملين وهم يتابعون الرحلة عبر القرن الذي بدأت تباشيره تظلل الخطأ وكل آت قريب.

نقول هذا.. ونحن نعني ما نقول في تصور للمنهج والتطبيق.. نقوله ونحن أكثر اقتناعاً بأن الأعداء لن يمكنوا هذه الأمة ـ لو استطاعوا ـ من أن تلتقط أنفاسها، كي تستأنف رحلتها الحضارية مجدداً بعد تجارب مريرة، ومعارك ضارية على كل صعيد، وألوان من المؤامرات التي لا يغفل عنها إلا غافل.. وكم للأخطبوط من أيدٍ وكم له من أرجل.. والمعاذ الله.

أجل.. لن يدعوها تلتقط أنفاسها ـ لو استطاعوا ـ خصوصاً بعد المتغيرات التي تحدِّث أخبارها في العالم الإسلامي.

ومن أجل هذا كان لزاماً على الأمة ممثلة بأهل الريادة على ساحات التغيير، أن تأخذ حذرها ـ كما هو أمر الله ـ وأن تكون على يقظة تامة في شأن مواقعها ومنطلقاتها، ومواقع أعدائها ومنطلقاتهم.

ولقد يكون ذلك أمراً بالغ العسر من منظور المنهج والتطبيق، لما يتطلب من إيمان عميق، وحس دقيق، وصبر ومصابرة هما من أخلاق المجاهدين.. ولكنه الواجب الذي تحتمه طبيعة المرحلة، وهو في الوقت نفسه استجابة ووفاء لما يفرضه موثق الولاء لله ولرسوله، وصدق الانتماء إلى هذا الدين القويم، وإن صفة المجاهد هي الصفة المميزة للمسلم قبل أي شيء.

إنهما عينان لابد أن تكونا على بصر جديد.. عين على زيادة الإيمان، ومضاعفة الجهد والعطاء، وشحن النفوس بالوعي الشامل، والإقبال على الجهاد وحب الاستشهاد.. وأخرى على ما يصنعه الأعداء - في إطار التعريف الذي لا يداهن ولا يماري - ورصد الأسباب والنتائج القريبة والمتوقعة.. وليس سراً ما يصنعه هؤلاء الأعداء في دنيا العالم الإسلامي هنا وهناك.. وإن كان ما يخفى منه أشد وأنكى.

وفي هذا الشق الثاني من الموضوع، تمدنا الوقائع يوماً بعد يوم بما يؤكد أن المشكلة الأولى في نظر من يركبون متن الضلالة في مواجهة الحق هي الإسلام ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

كون المسلمين مسلمين، هو جريمتهم الأولى التي ترشحهم للإبادة والتصفية الجسدية وانتهاك حرماتهم في أرضهم وديارهم، بل في وجودهم من حيث هو.

ولقد ثبت بما لا يقبل الشك: أن كل القيم التي تجعل الإسلام ذلك المنهج الرباني الفريد الذي يتسق مع فطرة الإنسان، ويحول دونه ودون التناقض مع سنن الله في الكون والحياة، ويتفادى كل الثغرات ونقاط الضعف في الأنظمة الأخرى.. هي نفسها سبب جوهري من أسباب العداء للإسلام، ناهيك عن علاقته - عبر التاريخ - باليهودية والصليبية والإلحاد والملحدين.

إن أعداء الحق - على الصعيد الفكري - يرون فيه نظاماً يصعب اقتحامه ؛ لأنه نظام شامل للحياة بعمق واتساق ، وتوازن وشمول . وعلى الصعيد العملي ، يرون فيه القدرة على تحريك الأمة - مهما طال الرقاد - كي تعود سيرتها الأولى وتتسلم راية القيادة من جديد .

وتراهم في سبيل الحيلولة دون الشعوب الإسلامية ودون التحرك واستمرارية اليقظة يرتكبون كل موبقة ، ويتجاوزون - بلؤم وخسة - حتى أبسط ما يسمونه أصول التعامل الدولي ، ولا تسَلْ عن دعوى حقوق الإنسان ، فتلك مهزلة المهازل في القرن العشرين .

ترى هل هو التمييز العنصري الذي يعجز الفكر عن ملاحقته ليل نهار؟

أقل من خمسين إنساناً يحتجزون بتهمة التجسس فتقوم الدنيا وتقعد لأنهم ينتسبون إلى دولة كبرى ، وعشرات الألوف من المسلمين الصادقين المجاهدين تنتهك حرماتهم ، وتحتل أرضهم وديارهم ظلماً وعدواناً ، ويتعرضون للإبادة ، فلا تتخذ خطوة جادة بشأنهم ! !

ترى هل هي الحضارة التي يصعب فهم أسرارها وسبر أغوارها ، أم أنها مبادئ العدل والإنصاف؟ !

إنه مسلك يحكي دائماً قصة الحمل مع الذئب ، فالمسلمون هم المعتدون ولو اعتُدي عليهم ، وهم الظالمون ولو ظُلموا ، وهم المتخلفون أعداء الإنسان ، ولو كان الغاصب لا يعرف في معاملتهم إلا الوحشية التي لا ينزلق إليها وحوش الغاب ! !

والأنكى من ذلك أنهم يذبحون بسيف الحرية والشعارات الإنسانية، وترى أن موجِّه التهمة والقاضي والشاهد ومن يتولى التنفيذ: واحد.. فيكفي أن يقولوا في الإسلام ما يشتهون، وفي المسلمين ما يشاء لهم الهوى حتى يكون ذلك مسوغاً لكل ما يصنعون.. ويصنعون.

ولقد آن للمسلمين أن يرسموا ـ على مستوى الإدراك ـ خطاً بيانياً يبدأ من ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾. ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾. ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾. ويمر عبر التاريخ بالوقائع تلو الوقائع، ويحط رحاله مؤقتاً عند هذا الذي هو حاصل اليوم في عالمنا الكبير عموماً، وفي قطر من أقطاره بشكل خاص.

إنهم إن فعلوا ذلك استطاعوا ـ من هذه الناحية ـ أن يتخطوا مباءة الغفلة، وأن يتجاوزوا مرحلة حسن الظن بمن يُفلسف هذا الخطُّ البياني طبيعةَ علاقتهم بنا من خلال الوقائع الناطقة عبر القرن الرابع عشر للهجرة الذي حفل بما حفل به من العناوين المزوقة، والخداع الفكري الذي يُخفي وراءه السمَّ الزعاف.

وإذا كنا نعيش في هذه الأيام ذكرى مولد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبدء دعوته وهجرته، فحريٌّ بنا ـ وفي العالم الإسلامي من المآسي ما يذوب له القلب، وتنفطر له الأكباد ـ أن نتذكر وتتذكر أمتنا وهي تحمل عبء نفسها وعبء الإنسانية: أن اللغة التي تصلح لهذا العصر، ولكل عصر هي لغة سيرة المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

أجل . . إن لغة السيرة هي اللغة العصرية لنصرة الحق والإنسان في كل عصر؛ ذلك أن الرسول الكريم، بلغ الدعوة وقام بإعداد أبنائها لمواجهة التحدي، وهاجر من مكة إلى المدينة، وفي مجتمع المدينة: كانت مصاحبةُ العمل الميداني جهاداً وحكماً وعملاً، للعمل الفكري التربوي سمةً واضحة من سمات السيرة النبوية.

دع عنك الكلمات المعسولة التي تُكسى ثوبَ الفلسفة والفكر، وانظر إلى صنيع أصحابها بهذه الأمة. . وليكن في الحسبان دائماً تكامل الحركة في حياته ـ عليه الصلاة والسلام ـ، إماماً للناس في المحراب، وداعية يدعوها إلى الإسلام، وخطيباً يبين لهم أمور دينهم ودنياهم ويعالج مشكلاتهم، ويداوي كلومهم، ويصرخ على المنبر بأعلى صوته «كأنه منذر جيش يقول: صبَّحكم مسَّاكم» وانظر إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقود معارك الجهاد في بدر وأحد والأحزاب والحديبية والفتح وحنين وتبوك وغيرها، ولا يدع أن يعد العدة المستطاعة، ذاكراً من بيده النصر سبحانه، حريصاً كل الحرص على الإنسان!

تلك هي لغة عصره التي يجب أن تكون اللغة التي يتعامل المسلمون من خلالها مع الآخرين عقيدةً وعلماً وتعلماً وجهاداً وإعداداً للجهاد، ذاكم هو حصن الأمة من الخارج، كما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حصنها من الداخل.

وحين تعد الأمة أجيالها على هذه الصورة من التكامل، تسلم لها بنية المجتمع، كما تسلم لها الهيبة في صدور أعدائها الذين تراهم دائماً جادين في حربها على كل صعيد بشتى الألوان والأساليب.

لست هنا بسبيل أن أصرف الأمر كله إلى النقمة على أعداء الحق، وتناسي ما هو واقع بالأمة من الإدبار عن إعداد القوة والمنعة، والفتور في نصرة دينها وكتابها.. لا سيما وقد أشرت إلى هذا في صدر الحديث، ولكنني بسبيل كشف اللثام عن بعض الحقائق التي قد تخفى على بعض المتغافلين، أو من يضعون حسن الظن في غير موضعه، قاعدين عن إدراك الأبعاد التي حملها التهاون فيما مضى، ونتجرع علقم نتائجها اليوم.

والأمة إذا وعت سيرة نبيها ـ عليه الصلاة والسلام ـ في منطلقاتها وأهدافها، وطبيعة الحركة فيها، والأطرَ التي تحدد المسار في وضع مفهومات القرآن موضع التطبيق.. كان لها من ذلك بعون الله قوة في بنية الفرد وقوة في بنية الجماعة، وكانت أخوة العقيدة صرحاً منيعاً يحول دون أن يضام بلد مسلم، فيقابل ببلادة الحس، وضمور المشاعر، الأمر الذي نبصر اليوم فيه واحدة من نتائج التمزق الفكري ووباء القومية، وعفن التصورات المستوردة من هنا وهناك.

مرة أخرى: إن لزاماً على خير أمة أخرجت للناس، أن تستقبل القرن الخامس عشر للهجرة ـ حين تستقبله ـ وهي أصدق عزيمة على أن تصحبه غير اصطحابها القرنَ الذي سبق، وأن تكون أكثر وفاء لسيرة نبيها وإمامها محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ؛ فتعامل الأحداث والوقائع باللغة التي تكلمت بها تلك السيرة، وبالنهج الذي نهجه سيد المجاهدين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، حين لم يدع قضية لحساب أخرى، وجعل الجهاد ذروة سنام الدين.

ففي الحديث الصحيح [**وذروة سنامه الجهاد**] و[**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها**].

اللهم يوماً من أيامك تجمع فيه القلوب على الحق، وتوحد كلمة جندك على الهدى، تُعز فيه أولياءك وتُخزي الظالمين أعداء الإنسانية أعداءك..

اللهم ساعةً من ساعات نصرك وتأييدك يُدال فيها لأهل التوحيد من أهل الضلال والفساد، وترتفع راية دينك الذي ارتضيته من جديد!!